اللفظ المتباينة ليعرف مقدار ما أخذ وما أهمل ، كان هذا درسا من الدروس النادرة التى لا يجود الزمان بمثلها على الدوام .

ولكن أمينا أستاذ للتفسير ، عليه أن يتحرج فى مواجهة المشكلة فى أبعادها النظرية والعملية جميعا . كان أمين حريصا على أن يرجع إلى ماضى الألفاظ البعيد ، إذا واجه لفظا فى النص القرآنى الكريم تأمل فى أطواره الأولى وتقلباته . . ومغزى هذا أن تحديد الطور المتأخر لايمكن أن يتم بمعزل عن الأطوار السابقة ، فالأطوار السابقة تحدد ،على الإجمال ، الإمكانات المتاحة أمام اللفظ فى النص الذى نواجهه .

هذا منطق يحتاج إلى التريث ، لأن الألفاظ لاتصنع دفعة واحدة ، ولا يمكن ان نتأمل حاضرها بمعزل عن ماضيها . ولذلك كان تاريخ اللفظ عملا أساسيا من أعمال التفسير ، اللفظ متغير ، طورا نرى تغيره ، وطورا يعز علينا أن نلاحظ ذلك التطور . . وحيئنذ تتبدى الصعوبة الأساسية فى الدراسة . . وبعبارة أوضح إننا لا نلمح التغير الا فى حالات قليلة حين يشتد الصراع أو يتضح بين أنماط من العرف ، ولكن العرف نفسه لايهدأ ولا يلبث على حال واحدة فى النصوص الأدبية التى نعنى بها ، فالنص الأدبى يقوم فى معظم الأمر على حذف بعض الجوانب فى سبيل جوانب أخرى . وهنا نرجع إلى ما سميناه باسم ماضى الألفاظ وحياتها السابقة .

ومعاجمنا كما تعرف تخلط حديثا بقديم وتخلط شعرا بنثر ، وتخلط نصا علميا أو شبه علمى بنص إخبارى أو عملى . وهكذا أصبح الإشكال الحقيقى هو تنظيم حياة اللفظ وسط الفوضى التى تواجهنا فى كل مكان . هذه هى النهضة التى كان أمين مولعا بالإشارة إليها فى تواضع وثقة ، فقد كان يعرف آثار حرص الكتاب على إرضاء طبقات واسعة من القراء . . وغالبا ما يتم هذا الإرضاء على حساب تجاهل المشكلات الدقيقة التى لا تجتذب كثيرين . . وعلى رأس هذه المشكلات حياة الألفاظ ودلالاتها .

كان النص القرآنى إذن يطالبنا بأن نبحث فيما كان عليه استعمال لفظ « الإيمان » و« التقوى » و« العمل الصالح » قبل الإسلام . ماذا كان يدل عليه استعمال صيغة معينة دأبنا على أن نسميها باسم القصر . كان تفسير النص مآله الحقيقى هو أن نعرف بطريقة مريحة إلى حد ما ماذا كان موقف العقل العربى القديم من فكرة التقوى أو فكرة العمل الصالح ، وماذا صار إليه الأمر حينما أنزل علينا القرآن الكريم . كيف يمكن أن نقضى